

ام الشهيد

بقلم: راما أبو نعسة

في أحد الأيام كنت أتجول في مخيم الجليل وجدت حاجة في مطلع الثمانينات تجلس على حافة الطريق لا تفعل شيئاً سوى أن ترد السلام على المارة وتمطرهم بكم هائل من الدعوات اللطيفة الدافئة. فانتابني الفضول من تكون هذه الحاجة ولماذا الجميع يعرفها ويرحبون بها كأنها مهم. فقررت أن أذهب إليها وألقي السلام عليها. عندما ألقيت السلام، رحبت بي بحرارة وعاملتني معاملة الجدة بحنيتها. تعرفنا على بعض وكانت تدعى نعمة ديب "ام وليد" و بدأنا نتبادل أطراف الحديث بشكل طبيعي، إلى أن علمت بأنها أم لشهيد. لم أصدق أن الله أكرمني وجعلني ألتقي بأُم شهيد. عندها لم يعد الحديث طبيعياً بالنسبة لي، بل تحول إلى إجابة عن كم هائل من الاسئلة تجول في خاطري عن أمهات الشهداء وحياتهم، فبدأت تروي لي قصة استشهاد ابنها وبعض المواقف التي تعيشها كأُم شهيد.¹

"مرة كنت قاعدة على حافة الطريق بالمخيم مكان ما احنا قاعدين اسا وتجمع حوالي مجموعة أطفال وطلبوا مني أخبرهن عن فلسطين وابني الشهيد

-حلوة فلسطين يا حجة؟

-فلسطين حلوة يا حجة؟

-فلسطين جنة أحلى منها ما في

-يعني ابنك استشهاد فيها؟

-لا ابني استشهاد بلبنان

و بلشت أحكيلهن قصة استشهاد ابني هشام وما قدر شي يوقفني إلا الغصة لما اجيت أقول "استشهد هشام" وقتها بلشوا الولاد يهتفوا "كلنا ولادك يا حجة ويم الشهيد نيالك يا ريت امي بدالك"

بعدين سألني واحد منهن "ستي بسمع عالم بحكوا انو معهن مفتاح لفلسطين، شو هو مفتاح فلسطين؟" قتلته الكلاشن والفدائي.

ليلة العيد الكبير 1983 بالوقت اللي كل الأمهات بتحضر كعك العيد وبتجهز ثياب أولادهن. كنت قاعدة على سجادة الصلاة أصلي وأدعي ربنا يظمن قلبي بخبر عن هشام. و ابني الكبير وليد كان عم يحضر إكليل الورد اللي بالعادة بيتقدم مع رسالة كل عيد لأهالي الشهداء.

بعد شوي سمعت وليد بناديني لأساعده بكتابة الرسالة. بلشت أدور عن كلمات معبرة تخفف الوجد عن أمهات الشهداء بس ما لقيت. قررت أتخيل حالي محل شي وحدة منهن بس ما قدرت أتخيل غياب حدا من ولادي للأبد. فبلشت أكتب كل كلمة بتخطر على بالي لأواسيهن. بس وصلت عند نهاية الرسالة من شباب المخيم إلى أهل الشهيد...طلب مني وليد أوقف كتابة لأنو ما منعرف هالرسالة رح تكون من نصيب أي عيلة. بس ما كنا

نعمة حسن ديب، مواليد 1942، عكا-فلسطين، مقابلة بتاريخ 2022/11/18، دار الوفاء للمسنين-مخيم الجليل، مقابلات أرشيف النكبة¹

متوقعين أبدا إن الكلام اللي كتبتة كان مواسة لإلي وانه المشهد اللي ما قدرت أتخيله ثاني نهار الصبح رح يتحول لحقيقة...

قبلها بكم شهر كان هشام عم يقاوم الصهاينة ببيروت وما كان يوصلنا ولا خبر عنه لأنه الطرقات مقطوعة وما كان التواصل مع العالم سهل مثل اليوم. بعد ما حاولنا كثير قدر وليد يعرف انه هشام جريح و صرله فترة بالمستشفى. لما سمعت هالشي نار ولعت بقلبي دغري بعنت وليد على بيروت يتظمن على هشام واذا قدر يرجعه معه. بعدها بكم يوم رجعوا ولادي الاثنين ضميتهن لصدري بس كان للمقاوم العنيد القسم الأكبر من الضمة شديته و كان نفسي أحبسه بقلبي ويا ريتي قدرت...

بلش هشام يمزح وينكت ويحاول يلطف الأجواء بعد ما شاف الكل قلقان عليه وقعد يخبرنا عن مغامراته وبقي عنا كم يوم.

خلال هالأيام كنت عم بحاول قد ما فيني أمنعه من انه يرجع للمقاومة كنت أقوله أزوجه ويفتح بيت يعيش مثله مثل باقي الشباب ويفرحني بأحفاد يملوا هالبيت، بس ما رد، كان عنيد مصر يكمل مقاومة مع رفاقته، وكل ما كنت أنق عليه اكثر ليترك هالطريق كان يصير اكثر. لحد ما اجا اليوم المشؤوم اللي قرر فيه هشام يرجع يتركنا ويروح على بيروت ليقاوم الصهاينة ويمنعن من انه يحتلوا بيروت مثل ما احتلوا منطقتنا بالنكبة وشردونا منها. حاولت أمنعه بكل الطرق بس ما قدرت، وقتها استسلمت للأمر الواقع ضميتيه وشميتيه وكان نفسي ما أفلته أبداً. وقتها قلي كلام لليوم بسمعه بداني كل شوي وبحسه بين ايدي عم يحكيهن وبشم ريحته "أمانة اذا بستشهد ما تبكي ولا تشلخي حالك بدك تزغردى" هالكلمة نزلو مثل السيف على قلبي، باس راسي وايدي وطلع، ومن وقتها ما عرفت عنه شي لحد يوم العيد الكبير.

يوم العيد الصبح كان المخيم هادي على غير عادته طلعت أعمل الجولة اللي كل سنة بعملها على الجيران و القرايب طلع بوجهي رفيق ابني هشام ماشي على الطريق مثل المشردين و ببكي قائله مالك بتبكي مثل الولاد الصغار، قلي هشام استشهد يما...

قبل ما أستوعب اللي سمعته لمعت براسي وصية الغالي العنيد "ما تبكي وما تشلخي حالك بدك تزغردى، ما تبكي وما تشلخي حالك بدك تزغردى" قعدت أذكر حالي ممنوع دمة تنزل مني، ممنوع أنهار، ممنوع أزغل البطل. فحملت حالي ورحت خبرت باقي العيلة، جهزت الورد والرز بصينية، وحملتني بإيد وحملت الكلاشن بايدي الثانية وطلعت أنا وعماته نجهز لرفته لحد ما وصلت جثته. حملوه الشباب ومشينا أنا وعماته وراهن بالكلاشينات وبلشنا نهاهي ونزغرد، كانت جنازته كبيرة وسريعة كثير، دفناه وحطيت التراب بايدي على قبر عيوني وقلبي وروحي هشام، دفنته بايدي و فليت...من يومها والعالم تواسيني انو الوجود بخرق مع الوقت وبتعودي وأنا صدقت. بس بعد حوالي ٣٠ سنة اكتشفت اني ضحكت على حالي وعلى العالم حولي، الوجود لا خوف ولا راح وأنا اللي اندفنت يومها مش هشام.

بعد ٣٠ سنة تقريبا بذكرى النكبة كان جامع لتحفيظ القرآن عامل تمثيلية عن الشهيد، وطلبوا مني أمثل دور ام الشهيد. قالولي بدنا تزفي الشهيد مثل ما زفيتي هشام وتهاهي وتزغردى على المسرح وأنا وافقت. طلعت على المسرح كان في ولد صغير عم يمثل انه الشهيد ملفوف بعلم فلسطين وقدامه اثنين ما شفت ملامحهن بس اللي شفته انهن لابسين بدلات زي الصهاينة، وقتها ما قدرت أتحم بحالي هجمت على حدا منهن و بلشت أضرب و ما سمعت شي حولي لا من ضجة الحضور ولا من موسيقى المسرحية ولا من المسؤولين اللي عم يحاولوا يبعدونني لأنه هالمشهد مش من ضمن الاتفاق، كل اللي سمعته صوت هشام وهو عم يوصيني " بس

استشهد ما تبكي ولا تشلخي حالك بدك تزغردى". ما حسيت بحالي إلا لما بعدوني عن اللي عم تمثل انها الجندي الصهيوني، وقفت استجمعت حالي وبلشت بدي أرف الشهيد مثل ما زفيت ابني. أول ما سمعت صوت الإسعاف انربط لساني ما عدت قادرة أسمع شي، وقفوا الشيوخ والحضور يكبروا ليشجعوني أنطق وأعمل مثل ما عملت لما زفيت ابني الشهيد الحقيقي بس ما قدرت، وضل ببالي صوت هشام وريحته وضحكته. نزلوني عن المسرح وقعد الشيخ يعرف الحضور عليي ويخبرهن قصتي ليوضح الموقف اللي صار. يومها عرفت انه الدمعة اللي خبيتها يوم استشهد هشام ما راحت ولا خفت بس كانت مع الوقت عم تتخزن بقلبي لशल دموع وقهر وعجز وحقد على محتلنا.

أكلت الحاجة أم وليد كلامها عن المخيم وفلسطين والتهجير ولكن لم أستطع التركيز معها، فعقلي كان تائها في لغز أمهات الشهداء. الحاجة أم وليد ليست وحدها من عانت لسنوات من الحرب النفسية التي تعيشها اثر خبر استشهاد ولدها، معظم أمهات الشهداء كذلك، بل واحدة منهن تجاوزت مرحلة الوجد والمعاناة الطبيعية لتصل إلى مرحلة عدم الادراك وعدم تصديق الأمر الواقع... الحاجة أم عزيز، لاجئة فلسطينية في لبنان، أم لأربع شهداء او ام لأربع مفقودين كما تظن.

استشهد اولاد الحاجة ام عزيز في مجزرة صبرا و شاتيلا و لكن عقلها الباطن ادرك ان قلبها لن يتحمل خبر استشهاد ثلاثة اولاد فقرر ان يبقيه سرا داخله و ان يخبرها بأنهم مفقودين و انه لا يزال هناك امل بعودتهم. ام عزيز روت قصة حدثت معها بعد فقدان اولادها ب ١٥ عام. كانت تصلي صلاة العصر في منزلها عندما شعرت بوجود احد ابنائها بجانبها يتجول في البيت قالت في نفسها " هياتهن رجعوا بخلص صلاتي و بشوفهن" و لكن قبل ان تنهي صلاتها رأتها امامها غسل وجهه و خرج من الغرفة فركضت تبحث في البيت فلم تر ولدها او اي اثر له. فنزلت تركض غاضبة عند زوجات اولادها تصرخ بأعلى صوتها "يا ويلكو من الله قولولي بدكو تنزوجوا بزوجكو اجا و ما لقاكو ابصر وين راح يدور عليكو" و بقيت على حالها تضرب نفسها و تكرر هذه الجملة الى ان فقدت الوعي تمام و سقطت على الارض. عندما افاقت ادركت ان ولدها لم يعد و انها توهمت بوجوده حولها ، لكنها لم تدرك ابدا ان الوهم لم يقتصر على تخيلها بوجوده حولها بل هي تعيش منذ لحظة استشهاد اولادها داخل فقاعة من الوهم تجعلها دائمة الانتظار فهي تضع صورهم مقابل سريرها و تبقى تحدثهم طوال الليل و تفكر "بلكي اخدوا واحد يضربوه قدام التاني بلكي واحد مرشح بلكي واحد ساخن

يا حرام ببيوم العيد بيعدوا يقولوا امي بعدها طيبة ولا ميتة ابوي بعده طيب ولا ميت" الى ان يحن عليها النوم فيسرقها من وهمها.

قبل ان انهي لقائي بالحاجة ام وليد انتابني الفضول عن اثر رسالة المواساة التي كتبتها في نفسها فقالت " مثلها مثل قلتها ما في كلمة بالعالم ممكن تخفف وجع استشهاد هشام او تمحيه"

فأدركت مقصد ايليا ابوماضي في قوله "كلّ ما في الأرض من فلسفةٍ .. لا يُعزّي فاقدا عمّن فقد"